النشـــــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٢ / ٢٠٠١

الأحد ١٤ كانون الثاني
وداع الظهور الإلهي
تذكار آبائنا الأبرار المقتولين في
طور سيناء وريثو

اللحن الخامس
إنجيل السَحَر الثامن

الـــرســـالـــة (أفسس ٤ : ٧ ١٣)
الإنـــجـــيـــل (متى ٤ : ١٢-١٧)

+ دستور الإيمان

«... ابن الله الوحيد...»

«لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن بـــه بـــل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦).

لقد آمنت الكنيسة دومًا ان الرب يسوع هو «... ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور. نور من نور. إله حق من إله حق. مولود غير مخلوق. مساوٍ للآب في الجوهـر. الذي به كان كل شيء...».

هذه السطور من دستور الإيمان تتحدث عن ابن الله المسمَّى أيضًا كلمة الله، قبل ولادته بالجسد من مريم العذراء في بيت لحم. هذا لا يعني انه عندما تجسد لم يعد ابن الله. طبعًا لا، لكنه «أخلى نفسه آخذاً صورة عبد» (في ٢: ٧)،أي انه اتضع تواضعًا عظيمًا لكي يصير مثل سائر البشر، لكي يستطيع أن يخلص البشر.

الإيمان بيسوع على انه ابن الله هو من القواعد الأساسية في إيماننا: «وأنتم من تقولون اني أنا؟ فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الله الحي» (متى ١٦: ١٥و١٦). إنه قمة الإعلانات الإلهية، ووحده الله الآب قادر أن يكشفه. إنه السر الذي كشفه لنا الآب يوم أتى الرب يسوع ليعتمد على يد يوحنا المعمدان. فبعدما خرج من الماء جاء صوت الآب قائلاً: «أنت ابني الحبيب الذي به سررت» (مر ١: ١١).

يشدِّد دستور الإيمان على ان يسوع هو ابن الله الوحيد، لكي نميِّز بين بنوتنا لله بشكل عام كمخلوقين في وقت ومكان محددين وعلى صورة الله ومثاله، وبين بنوة يسوع لله بشكل خاص كغير مخلوق في قوت ومكان محددين، بل قبل كل الدهور، وهو صورة الله. نحن أبناء الله بالتبني، بيسوع المسيح. أما يسوع فهو من جوهر الآب وكيانه.

عبارة «قبل كل الدهور» تعني انه لم يكن وقت لم يكن فيه الإبن، قبل الخلق وقبل بدء الزمن. «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو١: ١-٣). لقد كان الإبن موجوداً في كل لحظة كان فيها الآب موجوداً، وهو غير منفصل عن الآب. كل تعليم عكس ذلك ينـدرج في إطار هرطقة آريوس الذي رفض ألوهة الإبن انطلاقًا من رفض أزلية وجوده. وهذا ما نفاه المجمع المسكوني الأول الذي وضع دستور الإيمان بشكله الحاضر والذي يؤكد على ان الإبن مولود من الآب قبل كل الدهور.

عندما كان يسوع يودِّع تلاميذه قبل الذهاب إلى الصلب قال لهم: «كل ما للآب هو لي» (يو ١٦: ١٥). وهكذا فإن الإبن كمولود من الآب قبل كل الدهور وموجود معه خارج إطار الزمن، هو حقًا «نور من نور وإله حق من إله حق». لأن الله الآب نور، فمن وُلد منه يجب أن يكون نوراً، وبما ان الله إله حق فمولوده إله حق. نحن نعلم من نظام الخلق إن ما يولد يجب أن يكون من نفس طبيعة الذي يلد، من نفس جوهره. لا يمكن أن يختلفا. الإنسان يلد الإنسان، والطيور تلد الطيور والأسماك تلد الأسماك والزهور تلد الزهور. وإذا كان الله في كماله الذي لا يوصف وكيانه الإلهي قد ولد الإبن، فيجب أن يكون الإبن مثل الآب في كل شيء، ما عدا خاصية كونه «الإبن». وهكذا إذا كان الآب إلهيًا وأزليًا، كاملاً وحقًا وحكيمًا وصالحًا ومحبًّا ووديعًا وصبوراً وطويل الأناة ورحومًا وكل ما نعرف عنه، وكما نقول في

الكلام الجوهري في القداس «الذي لا يوصف، ولا تحده العقول، غير المنظور، غير المدرك، الدائم الوجود، الثابت الوجود، أنت وابنك الوحيد وروحك القدوس»، فإن الإبن يجب أن يكون أيضًا بكل هذه الصفات. أن يعتقد المرء بأن من ولد من الآب أقل منه هو إهانة لله بحسب أحد القديسين، و«من لا يكرّم الإبن لا يكرّم الآب الذي أرسله» (يو ٥: ٢٣).

يركز دستور الإيمان على ان الإبن «مولود غير مخلوق». كل شيء انوجد في الكون خلقه الله من العدم، كل ما يرى وما لا يرى. لكن الإبن الوحيد وحده غير مخلوق. لقد ولده الله من كيانه وطبيعته خارج إطار الزمن. من خصائص الله حسب الإعلان الإلهي، ان الله أب أزلي بالطبيعة، وبالتالي يجب أن يكون معه ابن أزلي غير مخلوق. من خصائص طبيعته الإلهية انه يجب ألاّ يبقى أزليًا وحده في الألوهة، لكن انطلاقًا من كونه محبًّا وصالحًا يجب أن يفيض ويلد الإبن: «ابن محبة» (كو ١: ١٣)، كما يسميه الرسول بولس.

إذًا، هناك خط دقيق يفصل بين المخلوق وغير المخلوق، بين الله وكل شيء صنعه الله من العدم. الإبن مولود من الآب قبل كل الدهور غير مخلوق. لم يُصنع من العدم. أتى من كيان الآب الإلهي. إنه من «جانب الله».

ولكون الإبن مولوداً من الآب قبل كل الدهور وغير مخلوق، ويحمل كل صفات الألوهة التي للآب فهو «مساوٍ للآب في الجوهر». أي ان كيانه مثل كيان الآب. «كل ما للآب هو لي»، وبالتالي نستطيع أن نسمّي الإبن أيضًا الله (سوف نشرح ألوهة الإبن في عددٍ لاحق). ولكون الإبن مع الآب، ولديه إرادة واحدة وقوة واحدة وعمل واحد مع الآب، وبما ان العمل الأساسي للآب خارج إطار وجوده الإلهي هو الخلق، «خالق السماء والأرض وكل ما يرى وما لا يرى»، هكذا فإن الإبن مشارك له في الخلق وكما يقول دستور الإيمان «به كان كل شيء».

الآب يخلق بكلمته، وبالتالي فإن الإبن يتمم إرادة الآب، لأن إرادتهما واحدة. ليس الخلق فقط بل الإعلان الإلهي والخلاص تممهما الإبن. على هذا الأساس يكتب الرسول يوحنا نص «التكوين» خاصته في إنجيله: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١: ١-٣٦). كما كتب الرسول بولس: «فإنه فيه خُلق الكل ما في السموات، وما على الأرض ما يُرى وما لا يرى... الكل به وله قد خُلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل» (كو ١: ١٦-١٧)، «لأن منه به وله كل الأشياء. له المجد إلى الأبد. آمين» (رو ١١: ٣٦).

+ من أقوال إفاغريوس البنطي

+ الغضب هوى كثير الحدّة إذ يقال إنه غليان القوة الغضبية وحركتها ضد من أخطأ أو بدا مخطئًا. والغضب يجعل النفس متوحشة النهار كله، ويستولي على الذهن، لا سيما في أثناء الصلوات، عاكسًا وجه ذاك الذي أُحزن. فإذا دام الغضب وتحوّل إلى كراهية، سبّب في الليل اضطرابات وضعفًا في الجسم وشحوبًا وهجمات حيوانات سامة. وهذه الأمور الأربعة التي تحدث بعد الكراهية قد يجد المرء أنها تأتي بعد أفكار أخرى عديدة.

+ إن شيطان الضجر، الذي يُدعى أيضًا شيطان نصف النهار، أثقل الشياطين قاطبة. ويتصدى للراهب حوالي الساعة الرابعة، محاصرًا نفسه حتى الساعة الثامنة. فأولاً، هو يجعل الشمس تبدو كأنها بطيئة الحركة أو لا تتحرك، مظهرًا اليوم وكأنه يدوم خمسين ساعة. بعد ذلك، هو يضطر الراهب إلى النظر على الدوام إلى الشبابيك والقفز خارج قلايته للتحديق في الشمس كم تبعد عن الساعة التاسعة وللنظر هنا وهناك ما إذا كان أحد الإخوة يصنع شيئًا ما. فضلاً عن ذلك، هو يوحي أن يكره المكان الدير والحياة نفسها وعمل اليدين ويوحي له أن المحبة لدى الإخوة انتهت وأن لا من يعزّي. وإن كان ثمّة من أحزن الراهب في تلك الأيام، أضاف الشيطان هذا الأمر بغية زيادة الكراهية. ويحمل شيطان الضجر الراهب على اشتهاء أماكن أخرى يمكن فيها العثور بسهولة على ما يحتاجه، والبحث عن عمل أسهل وأكثر ازدهارًا. ويضيف أن إرضاء الرب ليس مسألة مكان، قائلاً إنه يمكن السجود لله في كلّ مكان. ويُلحق بهذه الأمور ذكرى الأقارب والسيرة السابقة، مصوِّرًا طول زمن الحياة وواضعًا أمام أعين الراهب آلام النسك، ويستعمل، إذا جاز التعبير، كلّ حيلة حتى يهرب الراهب من حلبة الجهاد، تاركًا قلايته. هذا الشيطان لا يتبعه مباشرة أي شيطان آخر. أمّا بعد الجهاد فتسود النفسَ حالٌ سلامية وفرحٌ لا يُنطق به.

+ إن فكر المجد الباطل فكر ماكر يختبئ بسهولة لدى الناجحين في النسك، مريدًا أن يعلنوا جهاداتهم ويسعوا إلى الأمجاد من لدن البشر، وموحيًا شياطين تصرخ ونساء تشفى وجمعًا يمس للراهب الرداء. ويتنبأ بالكهنوت في ما بعد، ويضع طالبي قتله على الأبواب، فإن لم يُرد المجيء معهم اقتيد مقيّدًا. فإذا جعله هكذا متعاليًا بالآمال الفارغة، طار وترك شيطان الكبرياء يجربه أو شيطان الحزن، الذي يُحضر له أيضًا أفكارًا مضادة للآمال هذه. وأحيانًا يُسلم فكر المجد الباطل إلى شيطان الفسق من كان قبل برهة كاهنًا مقيَّدًا.

+ إن شيطان الكبرياء يصير مسببًا لسقطة بالغة الصعوبة للنفس، إذ يقنعها بألا تعترف بالله معينًا، وأن تعتقد أنها هي سبب ما توصلت إليه من النجاحات، وأن تتكلم بازدراء ضد الإخوة

على أنهم أغبياء، لأن ليس كلهم يعرف هذه النجاحات عنها. ويتبع هذا (أي الكبرياء) غضب وحزن والشرّ الأخير، أي الخروج عن الأطوار والجنون وجمع شياطين يشاهد في الهواء.

+ الهارب من اللذات الدنيوية كلها برج لا يدنو منه شيطان الحزن. فالحزن حرمان من لذة حاضرة أو متوقعة. ومن غير الممكن طرح هذا العدو إذ كان لنا تعلق بشيء ما من الأرضيات. لأنه ينصب الفخ ويسبب الحزن حيث يرى أن ميلنا على أشده.

+ المزامير والصلاة

المزامير في الأصل صلوات كانت تُستعمل في العبادة، يتلوها ممثل الجماعة المصليّة، ملكًا كان أو كاهنًا... وقد جمعت في كتاب واحد سُمي «كتاب المزامير»، هو أحد كتب العهد القديم. وكتاب المزامير كتاب مهم جدًا في العبادة المسيحية، حتى أنه تكاد لا تخلو صلاة من مزمور أو عدة مزامير. كما أن كتاب المزامير يُقرأ بكامله أسبوعيًّا في الصلوات اليومية.

كانت الصلاة، وما زالت، العنصر الأساسي في العبادة، بالإضافة إلى التقدمة. والعبادة هي لقاء الله بالإنسان، فيسبّح هذا الأخير الله ويدعو الجماعة إلى التسبيح، أو يطلب من الله إعانته في المحن والضيقات والأحزان التي يمر بها، أو يقدّم الشكر لله خالقه على الخيرات التي يسبغها عليه، وعلى مساعدته له في نواحي حياته كلها. وقد كانت المزامير وسيلة التعبير هذه.

التسبيح هو ترنيمة تمجّد عظمة الله وصلاحه اللذين يظهران من خلال عمله في التاريخ والخليقة. وما المزمور ١١٧، وهو الأقصر، إلاّ مثلاً واضحًا على التسبيح المقدّم لله: «سبّحوا الرب يا جميع الأمم، وامدحوه يا سائر الشعوب، لأن رحمته قد قويت علينا وحق الرب يدوم إلى الدهر. هليلويا». وفي المزمور ١٣٦ دعوة إلى حمد الرب على صلاحه وعلى ما فعله مع شعبه: «احمدوا الرب فإنه صالح، لأن إلى الأبد رحمته... إحمدوا إله السموات لأن إلى الأبد رحمته». (أنظر أيضًا مز ٣٣، ٩٥، ١٠٠، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩ و١٥٠).

في ضيقه، يشعر الإنسان كأن الله تخلّى عنه، فيصرخ إليه لينقذه ويخلصه: «إلى متى يا رب تنساني إلى الإنقضاء؟ إلى متى تحجب وجهك عني... انظر واستجب لي، يا ربي وإلهي. أنر عيني لئلا أنام إلى الوفاة... أما أنا فعلى رحمتك توكلت، يبتهج قلبي بخلاصك. أسبح الرب المحسن إليّ» (مز١٣). كما أنه يدرك أن ما أصابه هو نتيجة بعده عن الله أولاً فيستغفر ويطلب الرحمة: «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك، وكمثل كثرة رأفاتك امحُ مآثمي... اصرف وجهك عن خطاياي، وامحُ كل مآثمي. قلبًا نقيًّا اخلق فيَّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدد

في أحشائي... يا رب افتح شفتي فيخبر فمي بتسبحتك...» (مز ٥١: ٥٠) (أنظر أيضًا مز ٣، ٣١، ٥٤، ٥٦ و١٠٢). وبعد أن ينقذه الله ويسامحه، يقدّم الإنسان ترنيمة جديدة، ترنيمة شكر: «صبرًا صبرت للرب فأصغى إلي وسمع تضرعي، وأصعدني من جب الهلاك ومن طين الحماة، وأقام على الصخرة رجلي وثبّت خطواتي. وجعل في فمي ترنيمة جديدة، تسبحة لإلهنا. كثيرون يرون ويخافون ويتوكلون على الرب» (مز ٤٠: ١-٣). «أحببت أن يسمع الرب صوت تضرعي. لأنه أمال أذنه إلي، فأدعوه مدة حياتي... لأنك أنقذت نفسي من الموت، وعيني من الدمعة، ورجلي من الزلق. أسلك قدام الرب في أرض الأحياء... بماذا أكافئ الرب عن كل ما أعطاني. كأس الخلاص أقبل وباسم الرب أدعو. أوفي نذوري للرب أمام كل شعبه...» (مز ١١٦) (أنظر أيضًا مز ٩٢، ١١٧، ١١٨ و١٣٨).

كل هذه المواقف هي في حد ذاتها «صلاة». إنها لقاء مع الله وجلوس إليه. إنها اعتراف لله بأنه هو وحده الخالق والمخلّص ومصدر الحياة، وإليه وحده يلتجئ الإنسان، وله وحده يقدم التسبيح والشكران. ونجد في المزمور ٢٢ مثالاً يُحتذى في تعلّم «الصلاة». يقف الإنسان أمام الله ويشعر بتخلّي الله عنه: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني بعيدًا عن خلاصي، عن كلام زفيري» (الآية ١). يصرخ إلى الله من أعماق قلبه، وكأن الله لا يستجيب: «إلهي، في النهار أدعو فلا تستجيب، في الليل أدعو فلا هدوء لي» (الآية ٢). ولكن تعزيته هي أنه يعرف أن الله هو المخلّص: «عليك اتكل آباؤنا فنجيتهم. إليك صرخوا فنجوا. عليك توكلوا فلم يخزوا» (٤-٥). ولكنه يدرك ضعفه وهشاشته من جهة: «أنا دودة لا إنسان، عار عند البشر ومحتقر الشعوب» (الآية ٦)، وارتباطه بالله من جهة أخرى: «من بطن أمي أنت إلهي» (الآية ١٠). كما يدرك أنه غير قادر على مواجهة الضيقات والمصاعب والأحزان من دون معونة الله: «أحاطت بي ثيران كثيرة... فغروا علي أفواههم كأسدٍ مفترس مزمجر. كالماء انسكبت. انفصلت كل عظامي... يبست مثل شقفة قوتي ولصق لساني بحنكي وإلى تراب الموت تضعني» (١٢-١٥). فيصرخ إلى الله ويطلب منه المعونة: «أما أنت يا رب فلا تبعد، يا قوتي أسرع إلى نصرتي. أنقذ من السيف» (١٩-٢٠). غير أنه عندما يصل إلى هذا المستوى من التواضع والاتكال الكلّي على الله ينتفض ويبدأ بالتسبيح، متصرفًا تمامًا وكأن الله خلّصه: «أُخبر باسمك إخوتي، وفي وسط الجماعة أُسبّحك. يا خائفي الرب سبّحوه... لأنه لم يرذل مسكنة المسكين، ولم يحجب وجهه عنه، بل عند صراخه إليه استمع» (٢٢-٢٤).

هذه هي «الصلاة» في الحقيقة، فعندما يدرك الإنسان مدى بعده عن الله ومدى ضعفه بسبب بعده هذا، ويبدأ بالاتضاع والانسحاق والاتكال عليه، عندئذٍ فقط يدرك مدى قرب الله منه: «قريبٌ الرب من المنسحقي القلوب، ويخلّص المتواضعين بالروح» (مز ١٣٤: ١٨).